

# استراتيجيات التعايش وكفاءة الحوار بين العرب والغرب

عماد عبداللطيف ■

## 1 - السياق التاريخي للحوار بين الحضارات

الحوار الحضاري أو الثقافي هو «شكل من التفاعل بين القوى الاجتماعية، ووسيلة للتواصل أو لتجنب الصراعات وتلطيف المجابهات»<sup>1</sup>. وقد شهدت الإنسانية على مدار التاريخ مبادرات عديدة لصياغة العلاقة بين الشعوب والحضارات على أساس التعاون والحوار بدلاً من التنافر والصراع، مع أن الصراع بين الدول فيما مضى لم يكن بوابةً للفناء التام. نعم كان يُقتل آلاف البشر،

1 - انظر مقال: Qurong, S., (2001). Dialogue among Civilizations: Implications for International Relations, Journal of the China Institute of Contemporary International Relations.

المنشور على الرابط التالي:

[http://www.uscc.gov/researchpapers/2000\\_2003/pdfs/dialo.pdf](http://www.uscc.gov/researchpapers/2000_2003/pdfs/dialo.pdf)

وتُباد قري، وتُفَرِّغ مدن من أهلها؛ لكن بذرة البشر لم تكن مهددة في أي وقت مضى بالاستئصال؛ لكن إنسان العصر الحالي - الذي لم يقنع بالسيف ولا البندقية - صنع بيديه من آلات القتل البلهاء ما يمكن أن يستأصل شأفته؛ مما لا يُبقي ولا يذر، فأصبح البشر مهددين جميعاً دون استثناء. وبقدر عِظَم الخطر الذي يمكن أن يؤدي إليه الصراع، يكون عِظَم الحاجة لإحلال الحوار محل الصراع. وإذا كان الفناء هو النهاية المحتومة لأي صراع كوني في هذا العصر فإن الحوار يجب أن يكون سعيًا كونيًا معززًا بكل الطاقة التي تولدها غريزة البقاء.

لقد أدرك الكثيرون - ممن أرقهم تناحر البشر وتنازع الحضارات - عِظَم الحاجة للمصالحة، وعلى مدار العقود الأخيرة طرح كثير من المفكرين ورجال الدين والسياسيين دعوات ومشاريع لتجسير الفجوات بين البشر، وصياغة عالم يقوم على التعايش والتعاون. كان الحوار يطرح نفسه دومًا في هذه المشاريع والدعوات كأداة للوصول إلى هذا التعايش؛ إيمانًا بأن «إرادة الانخراط في الحوار لا يمكن أن تنفصل عن إرادة الحفاظ على السلام»<sup>1</sup>.

في أواخر سبعينيات القرن العشرين طرح روجيه جارودي دعوةً للحوار بين الحضارة الغربية من ناحية، وبقية حضارات العالم من ناحية أخرى. كان ذلك في كتابه «في سبيل الحوار بين الحضارات» الذي دعا فيه الغرب للإفادة من التنوع الحضاري الهائل الذي تقدمه الحضارات الأخرى، وذلك بدلًا من نزعة التعالي الحضاري

1 - انظر: كلمة المنجي بوسنينه ضمن: Proceedings of the International Symposium on Dialogue among Cultures and Civilizations، مرجع سابق، ص58. وكل النصوص المترجمة في هذا المقال قمت بها بنفسني ما لم أنص على غير ذلك.

التي تفتوّت إمكانيّة التعلّم من ثقافات العالم الأخرى الغنية<sup>1</sup>. ومن هذه الزاوية كانت فكرة الحوار تعني تبادل الخبرات والمعارف، على أساس وحدة المعرفة البشرية مع تنوعها وتكاملها. كان الحوار يعني في جذره الحقيقي التعلّم، وكان الطرف المدعو للتعلّم هو نفسه الذي دأب على القول: إنه لا يوجد لدى الآخرين شيء يمكن أن يضيفه إليه، أو لنقل: يتعلمه.

في أوائل التسعينيات أُعيد طرح الدعوة للحوار بين الحضارات في سياق تنفيذ ومواجهة نظرية صمويل هنتنجتون حول صراع الحضارات. لقد ذهب هنتنجتون - في مقاله المنشور في مجلة «شؤون خارجية» Foreign Affairs في عام 1993 بعنوان صدام الحضارات - The Clash of Civilizations إلى أن صراعات المستقبل سوف تكون صراعات بين الحضارات التي تختلف في أصولها الجوهريّة، وليس بين الكيانات الاقتصادية أو السياسية<sup>2</sup>، ورأى أن الحضارة الإسلامية أولاً والحضارة الصينية الكونفوشية ثانياً سوف تكونان جبهات المعارك مع الغرب في المستقبل.

لقد تعرضت نظرية هنتنجتون لتنفيديات متعددة، وتبلورت نظرية بديلة ترسم مستقبلاً آخر للبشرية؛ دعائمه الحوار لا الصراع، وغاياته التعايش لا الهيمنة، وأداته الفهم والتعاطف لا التحيز والتعصب.

1- انظر: جارودي، روجيه. (1977). في سبيل حوار الحضارات. ترجمة عادل العوا، نشر دار عويدات، لبنان، ط4 1999.

2- انظر، Huntington, S., The Clash of Civilizations? in «Foreign Affairs», vol. 72, no. 3, Summer 1993, pp. 22-49.

بعد سنوات قلائل تحولت هذه النظرية إلى عمل مؤسساتي دولي؛ ففي 4 نوفمبر تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم 22/53 الذي يجعل من عام 2001 عاماً للحوار بين الحضارات<sup>1</sup>. وقد دعا القرار حكومات الدول والأمم المتحدة إلى تخطيط وتطبيق برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات، ويشمل ذلك المؤتمرات والندوات وتوزيع المعلومات. ومنذ ذلك الحين توالى الفعاليات السياسية والثقافية من لقاءات وندوات ومؤتمرات وإصدارات؛ تحاول جميعاً أن تهيئ فضاءً للحوار بين الشعوب المختلفة، وأن تواجه طبول الحرب بنغمات الاتصال.

**إيماناً بأن «إرادة الانخراط في الحوار لا يمكن أن تنفصل عن إرادة الحفاظ على السلام**

وهكذا يمكن التمييز بين مشروعين متميزين للحوار بين الحضارات؛ الأول مشروع ثقافي والثاني مشروع سياسي. وفي حين يمكن التأريخ للأول بنشر جارودي لكتاب «في سبيل الحوار بين الحضارات»، يمكن التأريخ للثاني بخطاب الرئيس الإيراني السابق مُحَمَّد خاتمي في الأمم المتحدة في

عام 1998. وكلا المشروعين - رغم اختلافهما - يشتركان في كونهما رد فعل شبه مباشر على ممارسات أو مواقف غربية؛ فالمشروع الثقافي ردُّ فعل على دعاوى المركزية الأوروبية التي تروجُّ لأسطورة أن أوروبا بخاصة والغرب بعامة هما محور تاريخ البشرية وعقل العالم، ومن ثم تتم إزاحة بقية ثقافات البشرية وحضاراتها نحو الهامش التابع، الذي يؤثر ولا يتأثر. أما المشروع السياسي فهو رد فعل مباشر على أسطورة

1- يمكن الإطلاع على القرار على موقع الأمم المتحدة على الشبكة الدولية للمعلومات على

الرابط التالي: <http://www.unesco.org/dialogue/en/566.pdf>.

أخرى لا تقل ذيوغًا وخطورة؛ هي أن مستقبل العالم القريب سوف تحكمه الصراعات الحضارية بين جبهة الغرب من جهة والكونفوشية والإسلام من الجهة الأخرى.

## 2 - دور العرب والمسلمين في طرح مبادرة الحوار بين الحضارات وتعزيزها

كلا الداعيَّين للمشروعين الثقافي والسياسي - أعني جارودي وخاتمي - ينتميان - بدرجة ما - إلى حضارة الإسلام وثقافته؛ لذا فليس من الجرأة القول بأن مشروع الحوار بين الحضارات هو مبادرة إسلامية في المقام الأول؛ فقد كان للمؤسسات الثقافية العربية والإسلامية دور بارز في إزكاء الحوار بين الحضارات وتدعيمه ومساندته بعد الدعوة إليه، كما كان للمدن والأقطار العربية والإسلامية دور كبير في استضافة العديد من هذه الفعاليات<sup>1</sup>. وفي ديباجة تقرير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) عن أنشطتها في مجال الحوار بين الحضارات تذكر أن اهتمام المنظمة العميق بهذا الحوار يعكس إيمانها القوي بأن الحوار هو أفضل السبل لتحقيق التعايش المشترك بين الشعوب، ولإزالة أسباب سوء التفاهم وتشويه صورة حضاراتها وثقافتها<sup>2</sup>.

1- انظر على سبيل المثال الأنشطة الثرية التي تضمنها تقرير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، الصادر في منتصف عام 2008 عن «دور المنظمة في تعزيز الحوار بين الحضارات». على الرابط التالي:

[www.isesco.org.ma/english/dialogue/Dialogue%20paper%20English%202007.pdf](http://www.isesco.org.ma/english/dialogue/Dialogue%20paper%20English%202007.pdf)

تاريخ الدخول 4 أغسطس 2008. ولصورة أوسع للجهود العربية الإسلامية في الحوار بين الثقافات يمكن الرجوع إلى: ثابت، أحمد. (2004). العرب بين الحوار الثقافي والانعزال. دار الوطنية الجديدة، دمشق، ص9-42.

2- ديباجة الإيسيسكو، ص1.

قد لا يكون من المبالغ فيه القول: إن العرب من أكثر الشعوب اهتمامًا بمشروع الحوار بين الحضارات، ونظرة سريعة على حجم الأنشطة الفكرية والثقافية والفنية التي عُقدت من المحيط إلى الخليج كفيلة بالاطمئنان إلى حقيقة ذلك<sup>1</sup>.

ربما يرجع هذا الاهتمام العربي بالحوار إلى حقيقة أن العرب ربما كانوا أكثر شعوب العالم تضررًا من غيابه؛ فقد أصبح العرب في السنوات الأخيرة مرمى سهام نظرية الصراع بين الحضارات وتطبيقاتها، الممثلة في سياسة الغزو الاستعماري الجديدة التي تتجلى بوضوح في احتلال العراق. ولأن هذه الغزوة الاستعمارية الجديدة لا تهدد مصالح العرب فحسب؛ بل تهدد وجودهم - أدرك العرب - مفكرين وسياسيين - أن الحوار أداة مهمة لتغيير الصور النمطية السلبية التي تروّج عنهم، والتي تستند إليها إدارات دول الغرب الاستعمارية الجديدة في الحصول على تأييد شعوبها لقرارات الغزو بواسطة التضليل. والحوار هو الأداة الأساسية التي يمكن من خلالها تنفيذ هذه الصور، والكشف عن المرامي الخفية التي تحرك المدافعين عن نظرية الصراع، وإظهار أن المصالح النهائية للشعوب لا يحققها التقاتل بل المصالحة، وأن «مستقبل البشرية يكمن في تصفية الاختلافات بين الشعوب بواسطة الحوار بدل الحروب»<sup>2</sup>.

1- انظر على سبيل المثال: تقرير الأيسيسكو عن نشاطاتها في مجال حوار الحضارات، ولاحظ أن معظم هذه الأنشطة حدثت في دول العالم العربي. انظر:

[www.isesco.org.ma/english/dialogue/Dialogue%20paper%20English%202007.pdf](http://www.isesco.org.ma/english/dialogue/Dialogue%20paper%20English%202007.pdf)

2- انظر كلمة رئيس أيسلندا الأسبق *Vigdís Finnbogadóttir*، في مؤتمر الحوار بين الحضارات الذي عقد في اليابان في 31 يوليو 2001 على الرابط الآتي:

<http://www.unu.edu/dialogue/papers/finnbogadottir-ks.pdf>

### 3 - الحوار العربي / الغربي: تاريخه، طبيعته، وغاياته

لقد بدأت تباشير الحوار العربي/الأوروبي بعد حرب أكتوبر 1973، بعد أن ظهر العرب كقوة اقتصادية وسياسية كبيرة على الساحة الدولية<sup>1</sup>، واقترن هذا الحوار بتغيير استراتيجيات التعامل مع الغرب الأوروبي، ورغبة بعض الدول العربية - خاصة مصر - في استبدال الاستراتيجية التي تحكم علاقاتها الخارجية في شكل توثيق للعلاقات السياسية مع دول غرب أوروبا وأمريكا، على حساب العلاقات التي كانت وثيقة مع الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا في الخمسينيات والستينيات.

وعلى الرغم من انقضاء عقود طويلة على هذه البداية إلا أن هذا الحوار - بحسب ما يرى البعض - لم يؤت أكله؛ بل إن الصورة قد ازدادت سوءًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وغزو العراق؛ فكلاهما دعم تصورات سلبية عن الطرف الآخر؛ فقد تذرع البعض بأحداث سبتمبر لإصاق تهمة الإرهاب بالعرب بخاصة والمسلمين بعامة؛ بينما كان الغزو تجليًا بشعًا لأحد وجوه الغرب القبيحة؛ أعني وجه الغرب الاستعماري الاستغلالي الوحشي. ومع ذلك فإن الظروف تبدو ممهدة بشدة أمام العرب لاستئناف الحوار مع الغرب وتدعيمه؛ نتيجة للتغيرات الدولية الجذرية التي تحدث في الوقت الراهن، ومن أهمها بداية تشكل عالم متعدد الأقطاب. وهو ما يعني أن الحوار بين هذه القوى المتباينة سوف يكون أداة المستقبل للتعایش فيما بينها؛ إذ لم يعد العالم قادرًا على دفع تكاليف حرب كونية جديدة. وعلى الصعيد العربي، من المؤكد أن التغيرات السياسية التي تجتاح العالم العربي

1- انظر: التويجري (1998). مرجع سابق، ص52.

باتجاه الديمقراطية سوف تعيد بعض الاعتبار للعرب كقوة دولية، وهو ما قد يضمن في المستقبل تراجعاً في سياسة الهيمنة لصالح سياسة الحوار.

لا يكفي أن يكون الظرف الدولي ممهداً لكي ينجح مثل هذا الحوار؛ فثمة معارف أساسية لا بد من توافرها لدى أطرافه؛ ربما كان من أهمها معرفة أنفسهم ومعرفة من يتحاورون معه، وتحديد أي حوار يرغبون في تحقيقه، وأية أهداف يبتغونها منه. وسوف أقوم بمناقشة هذه المسائل بشكل موجز، وأبدأ بتناول هوية الأطراف المتحاوره؛ أعني العرب والغرب.

### 3-1. من العرب؟ ومن الغرب؟ وأي حوار يمكن أن ينشأ بينهما؟

من الضروري تعريف المصطلحات التي سوف نستخدمها على مدار صفحات هذا المقال حتى يتيسر الفهم وتسهل المتابعة، وليس ذلك بالأمر الهين؛ فبعض المصطلحات المتخمة بالدلالات والشائعة الاستخدام مثل الغرب والشرق والأنا والآخر أشبهه ببقع «الروشاخ» يرى كل شخص فيها ما يريد، وتعكس من ذات مستخدمها أكثر مما تعكس من جوهر كينونتها. قد يكون ذلك مخيباً لآمال باحث غايته الضبط الاصطلاحي في بحث يسعى لأن يقدم نفسه بوصفه أكاديمياً، لكن هذا هو واقع الحال؛ فمصطلح مثل (الغرب) قد يحمل معنى الدول التي توجد في جهة الغرب من منطلق جغرافي، والتي تضم أوروبا وأمريكا؛ لكن أوروبا ذاتها تنقسم إلى شرقية وغربية. وقد يعني بالغرب أوروبا، لكن هذه الـ«أوروبا» ليست كياناً منسجماً لا تاريخياً ولا ثقافياً ولا حضارياً، فهي تضم تركيا وألبانيا والبوسنة المسلمة، والقاتيكان البابوية، وإنجلترا منبت الرأسمالية، وروسيا الشيوعية،



وفرنسا الجمهورية وإسبانيا الملكية.. إلخ. - والغرب كما يقول د. حازم الببلاوي - قد يكون خبرة تاريخية كالحروب الصليبية أو الاستعمار، أو نظرية معرفية كالماركسية، أو اكتشافاً علمياً كالمطبعة والبخار أو غير ذلك<sup>1</sup>.

قد يبدو أن تعريف «العرب» أكثر سهولة؛ لكن هذا مجرد سراب. قد يكون التعريف الديمو-جغرافي سهلاً حين نقول بأن العرب هم من يعيشون بين الخليج والمحيط وعددهم كذا مليون نسمة. أما التعريف السياسي فيبدو أكثر سهولة؛ إذ يكفي أن تقول: إن الدول العربية هي التي لديها عضوية في جامعة الدول العربية؛ لكن مثل هذا التعريفات لا تقول لنا شيئاً كثيراً؛ فالتنوع والتباين خصيصة أساسية للعالم العربي. ونظرة سريعة على عادات وتقاليد وأفكار ولغات عينة عشوائية من اليمنيين والسوريين والإماراتيين والسودانيين والصوماليين والموريتانيين تجعل المرء يقر بواقع التعدد والتغاير، وتجعله يردد بصوت مرتفع عبارة الببلاوي «لا الغرب حقيقة واحدة ولا نحن كذلك»<sup>2</sup>. وعدم الوعي بواقع التعدد والاختلاف قد يقود إلى مشكلات كبيرة في إطار الحوار بين العرب وغيرهم من الشعوب<sup>3</sup>.

إن واقع التباين والتعدد لا ينفي واقع التشارك والوحدة. قد لا يكون للغرب مفهوم واحد؛ لكن ثمة مشترك بين جميع مفاهيمه

1- انظر: الببلاوي، حازم. (1999). نحن والغرب: عصر المواجهة أم التلاقح؟ دار الشروق، القاهرة، ص10.

2- الببلاوي (1999)، مرجع سابق، ص10.

3- أوردت إيلين فيجالي أمثلةً للمشكلات الناتجة عن عدم التحديد الدقيق لمفهوم العرب في سياق الاتصال بين الثقافات المختلفة والثقافة العربية في الدراسة الآتية:

Feghali, E. (1997). Arab Cultural Communication Patterns. *International Journal of Intercultural Relations*. Vol 21, No. 3, pp. 345-378 و349.

تجعله قابلاً للتعريف. وقد لا يكون العرب عضواً واحداً؛ لكن من المؤكد أنهم أعضاء في جسد واحد، قابل للتعريف كما هو قادر على التماسك. المشترك بين الغرب قد يكمن في التاريخ والجغرافيا والدين بشكل أساسي؛ فالغرب يشترك في كونه نتاجاً لعملية التحديث التي بدأت منذ عصر النهضة، وهو واقع بدرجة أو أخرى جغرافياً في الشمال من العالم العربي، والمسيحية الدين الرسمي لمعظم أقطاره، كما أنه يشترك في بعض الجذور الفكرية؛ فهو يُعد نفسه امتداداً للحضارة اليونانية القديمة، ونتاجاً مباشراً لعصر الأنوار والثورة الصناعية في بدايات العصر الحديث. أما المشترك العربي فقد يكمن في اللغة والتاريخ والجغرافيا والدين. فالعربية هي لغة العرب، وتاريخهم مرتبط بشدة منذ ظهور الإسلام، كما أنهم يشكلون كتلة جغرافية ضخمة تكاد تقع على نفس خطوط العرض، والإسلام هو دين الأغلبية في معظم الأقطار العربية.

**الحوار بين العرب  
والغربيين هو حوار بين  
بشر في الأساس. هذا  
الحوار قد يكون سياسياً  
أو ثقافياً أو رياضياً.. إلخ**

في إطار الاتصال بين الحضارات يصبح الاحتواء والشمول أفضل وأهم من الإقصاء والاستبعاد. وانطلاقاً من تلك القاعدة فإن مفهوم الغرب أو - العرب الذي سوف يكون عليه مدار حديثي - سوف يتسم بالشمول والاستيعاب، وهو يتحدد وفقاً لعنصرين: الأول ديمغرافي/جغرافي، والثاني زمني.

ولا بد أن أوضح في البدء أن الغرب - في إطار الاتصال - ليس إلا البشر، فالرمال والثلوج والمصانع والتكنولوجيا والمتاحف والدبابات لا تستطيع أن تشترك في حوار حضاري. البشر وحدهم هم من يستطيعون ذلك.

الغرب من الناحية الديمو-جغرافية هو البشر الذين يعيشون في قارة أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، وفي أمريكا الشمالية وكندا وأستراليا في دول يدين أغلب سكانها - ولو بشكل نظري - بدين غير الإسلام. وهو من هذه الناحية يضم ما يقرب من 20% من سكان العالم، يشغلون ثلاث قارات من قارات الدنيا الست المعمورة. هذا العنصر يكتسب أهمية خاصة في سياق الحوار بين العرب والغرب. فهو من ناحية يؤكد أن الغرب ليس هو أوروبا الغربية التي مثلت الاستعمار القديم؛ بل هو أيضًا أستراليا وكندا وروسيا بل وأمريكا وغيرها من الدول التي كانت موضع استعمار لدول أوروبا الغربية ذاتها. ولغة الغرب ليست هي الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية فقط؛ بل أيضًا الروسية والبولندية والتشيكية والبرتغالية..إلخ. وديانة الغرب ليست هي المسيحية فحسب؛ فالإسلام واليهودية والبوذية والسيخية وغيرها تنتشر في ربوع هذا الغرب. وأخيرًا فإن الغرب لا يتكون من أقطار متشابهة من حيث النمو الاقتصادي أو طبيعة نظام الحكم أو الإيديولوجيا المسيطرة.

لا بد وأن يكون هذا التنوع حاضرًا في الأذهان في سياق التخطيط لحوار ناجح مع الغرب، فالعرب يحتاجون إلى أكثر من سيناريو للحوار. سيناريو يناسب الثقافة الأنجلوسكسونية في إنجلترا وأيرلندا والولايات المتحدة ومعظم كندا وأستراليا، وآخر يناسب الفرانكفونية في فرنسا ومقاطعة كيبيك الكندية، وثالث يناسب الثقافة الجرمانية في ألمانيا وسويسرا والنمسا، ورابع يناسب الثقافة الروسية في روسيا وبعض دول الاتحاد السوفيتي الأسبق..إلخ. والعرب يحتاجون كذلك إلى أكثر من لغة، فليس صحيحًا أن الإنجليزية قد غدت لغة الحوار العالمي في العالم، حتى وإن كان يتحدثها معظم المشاركين فيه؛ بل إن استخدام

اللغة الوطنية في بعض البلدان - كما هو الحال في فرنسا - يطوي الكثير من المسافات بين المتحاورين.

### 3- 2. طبيعة الحوار العربي / الغربي

الحوار بين العرب والغربيين هو حوار بين بشر في الأساس. هذا الحوار قد يكون سياسياً أو ثقافياً أو رياضياً.. إلخ، فردياً أو جماعياً، رسمياً أو غير رسمي، منظماً أو عفويًا، متصلًا أو متقطعًا، وقد يقع في مدرجات الدرس أو على قارعة رصيف قطار، في قاعات ملكية أو في مقاهٍ شعبية، في مفتحات الصحف أو بين طيات كتاب أو على شاشة تليفزيونية ملونة. ومن ثم فإننا أمام أنواع مختلفة من الحوار لكل منها خصائصه وترتيباته وشروطه وأهدافه الخاصة، ويمكن تقسيمها بحسب العوامل الآتية:

1 - الخلفية المعرفية للأفراد المشاركين وانتماءاتهم الجغرافية أو العرقية أو الدينية: الأفراد المشاركون في الحوار يختلفون بحسب موضوع الحوار؛ فهناك حوارات أكاديمية متخصصة يشارك فيها أهل الخبرة من العلماء والأكاديميين، وأخرى دبلوماسية يشارك فيها رجال السياسة والحكم، وثالثة عامة يشارك فيها أفراد من عامة الشعوب.. إلخ. كما يختلفون بحسب انتماءاتهم الجغرافية أو العرقية أو الدينية فهناك ما يُعرف بالحوار الإسلامي / المسيحي، والحوار العربي / الأوروبي، والحوار بين الشمال والجنوب، والحوار الأورو-متوسطي.. إلخ. وعلى الرغم من أن لكلٍ من هذه المشاريع أجدته الخاصة، وسياقه التاريخي الذي نشأ فيه فإن ما يجمعها هو أنها تتقاطع في أكثر من مكان مع الحوار العربي/الغربي.

2 - عدد المشاركين: فهناك حوارات فردية بين-شخصية تدور في فضاءات الحياة اليومية سواء على الأرض العربية أو الغربية، وأخرى جماعية يشترك فيها أفراد شتى.

3 - الإعداد والتنظيم: فهناك حوارات مؤسسية مجدولة يُعد لها بشكل مسبق، وأخرى عفوية تلقائية تحدث دون ترتيب أو إعداد مسبق.

4 - طبيعة الجماعة المنظمة للحوار: فهناك حوارات رسمية، ترعاها مؤسسات دولية أو حكومية، وأخرى أهلية شعبية ترعاها مؤسسات المجتمع المدني، وثالثة شخصية يقوم بتنظيمها أفراد بجهدهم الخاص. هذه الأنواع من الحوارات لا يفضل بعضها بعضاً، ولا يجب أن نهتم بأحدها على حساب باقيها؛ فلكي يكون الحوار بين العرب والغرب ناجحاً يجب أن يكون شاملاً.

### 3- 3. أسس الحوار الأمثل وسماته

على الرغم من التمايزات السابقة يقوم الحوار بين الثقافات على مسلمات منها:

1 - الإيمان بالتعددية وقبول الاختلاف بين المتحاورين وما يمثلونه من ثقافات<sup>1</sup>.

2 - الإيمان بعدم إمكانية تطبيق معايير التفاضل والتراتب على الثقافات المختلفة؛ فليس من حق أية ثقافة أن تسم ثقافة أخرى بأنها دونية أو بدائية أو أقل تطوراً أو متدهورة أو متخلفة أو رجعية على نحو ما شاع في أدبيات الاستشراق الغربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بل والعشرين<sup>2</sup>. فالاختلاف لا يعني الدونية؛ بل مجرد الاختلاف.

1 - يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «الحوار لا يكون إلا مع التعدد، وإلا يكون حواراً مع الذات». انظر: شمس الدين، محمد مهدي. (1995). ضمن: الحوار سبيل التعايش مع التعدد والاختلاف. دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص58.

2 - لتحليل شامل لممارسات الاستشراق الغربي يمكن الرجوع إلى مؤلّفي إدوار سعيد الأساسيين: الاستشراق والثقافة والإمبريالية.

3 - الإيمان بأن الحوار ممكن على الرغم من الاختلاف؛ حتى لو كان جذريًا.

4 - إيمان كل طرف أن الحوار هو اختيار استراتيجي حتى لو كان قادرًا على القضاء على الطرف الآخر بالقوة؛ فالصراع لا ينتهي، وغالبًا اليوم هو مهزوم الغد. أما الحوار فلا غالب فيه ولا مغلوب؛ بل تعايش وتنسيق واحترام متبادل.

إضافة إلى هذه المسلمات توجد أسس عامة لا بد من توافرها في جميع أنواع الحوار بين الثقافات وأشكاله، حتى يُضمن نجاحها. وقد حددتها الإيسيسكو في ثلاثة أسس:

- 1 - الاحترام المتبادل.
- 2 - العدل والمساواة.
- 3 - مواجهة التعصب والكرهية<sup>1</sup>.

هذه الأسس التي تخص العلاقة بين المتحاورين يمكن استكمالها بواسطة السمات التي تتوفر فيما يسميه عالم اللغويات الإنجليزي نورمان فايركلوف «الحوار الديمقراطي democratic dialogue»، وهي:

- 4 - «أن بابه مفتوح لأي شخص، وكل المشاركين فيه لديهم حقوق متساوية في الكلام وواجبات متساوية في الاستماع.
- 5 - أنه حساس للاختلافات، يفسح المجال أمام سماع أصوات المختلفين، ويوجب على الآخرين الاستماع إليهم والاعتراف بهم.
- 6 - أنه يعطي مساحة لعدم الاتفاق، والاعتراض، والتعدد.

1 - ديباجة الإيسيسكو، ص2.

- 7 - أنه يسمح بنشأة مواقف وهويات ومعارف وتحالفات جديدة.
- 8 - أنه كلام يؤدي إلى فعل<sup>1</sup>.

السمات السابقة تخص عملية الحوار ونواتجه. وإذا أضفنا إليه الأسس الخاصة بالعلاقة بين المتحاورين يمكن رسم صورة أولية للحوار النموذجي بين العرب والغربيين الذي يعكس علاقات متساوية بين أطرافه، وقوى متساوية بين المشاركين فيه، وغايات نبيلة، وسعي حثيث لأن يتجاوز القول إلى الفعل. وسوف نحاول تفصيل ملامح مثل هذا الحوار من خلال تمييزه عن غيره من أشكال الاتصال الأخرى.

### 3- 3. 1. الحوار مع الغرب: حوار أم جدال؟

الجدال شكل من أشكال الاتصال بين طرفين، يدفع فيه المتجادل الحجة بالحجة بهدف البرهنة على صدق رأيه وصحته، وتفنيد رأي الطرف الآخر والبرهنة على نقصه وخطئه، وعلى الرغم من أن الجدل ينطوي على محادثة لفظية، فإنه توجد فروق جذرية بين الجدل والحوار. ففي الثقافة الغربية يتم تصوير العلاقة بين الطرفين المتجادلين بوصفها علاقة بين متحاربين، يحاول كل منهما «اكتشاف نقاط الضعف» في رأي مخالفه، و«سحق» حجته، وغاية الجدل هو «الانتصار» على صاحب الرأي المخالف. ومن ثم فإن الجدل في إطار الثقافة الغربية - والثقافة العربية لا تختلف عنها في ذلك - لا يسمح بالتعايش بين الأفكار المتصارعة، ولا يحتمل التسويات؛ بل ينتهي إما بانتصار أحدهما وهزيمة الآخر، أو بهدنة مؤقتة يحشد خلالها كل طرف «أسلحة جديدة» حتى يتمكن من «نسف» فكرة مخالفه في أول فرصة

1 - انظر: Fairclough, N. (2000). Dialogue in the Public Sphere. In Sarangi, S & Coulthard, M. (Eds.)

*Discourse and Social Life*. New York: Longman ص182.

للنزال!<sup>1</sup> هذا على النقيض مع الحوار الذي لا يسعى للانتصار على الآخر؛ بل فهمه والتعايش معه.

يرتبط بذلك ضرورة الوعي بأن الحوار العربي / الغربي لا بد وأن يكون سلمياً؛ أي عارياً من أي شكل من أشكال العنف. وخلق الحوار من العنف أمر ضروري؛ لأن العنف «يؤدي المعتقدات العميقة للآخر»<sup>2</sup>، ولا يمكن تخيل أن حواراً يُخالطه العنف يمكن أن يوّتي أكله؛ إذ الحوار والعنف متنابدان، لا يحضر أحدهما إلا غاب الآخر.

### 3- 3. 2. الحوار مع الغرب: حوار أم محاضرة؟

ليس الحوار العربي / الغربي محاضرة يلقيها طرف على الآخر، بهدف «تحديثه» أو «تنويره»؛ فالحوار بينهما يجب أن يستند إلى الاعتراف المتبادل بالاختلاف، والإدراك المتبادل لحقيقة أن الاختلاف لا يعني أفضلية طرف على طرف أو علو طرف على الآخر. وربما كان فشل الكثير من الحوارات بين الثقافات راجع إلى التعالي الذي يمارسه بعض ممثلي الثقافة الغربية ممن يحلو لهم أن يتحدثوا عن ثقافتهم بوصفها ثقافة كونية معيارية؛ يجب على الآخرين احتذاءها وتبنيها، وإلا اعتبرتهم أدنى حضارياً. فإذا ظن أحد أطراف الحوار أنه يمثل ثقافة عليا أو عصرية أو متقدمة، ونعت ثقافة الآخرين بالبدائية أو التديني أو التخلف تلاشى مبرر الحوار وحُكم عليه بالفشل.

في كثير من الحالات قد لا تقل أهمية التعريف بالسلب عن التعريف بالإيجاب؛ فتعريف الحوار العربي / الغربي بأنه ليس جدلاً أو محاضرةً

1- انظر: جورج لايكوف ومارك جونسون. (1980). الاستعارات التي نحيا بها. ترجمة عبد المجيد جحفة، نشر دار تويقال، المغرب، 1996، ص22-23.

2- نفسه، نفس الصفحة.



يؤدي إلى إجلاء طبيعة الحوار ذاته، وتحديد علاقته بالأنشطة الاتصالية الأخرى التي قد تتداخل أو تتشابك معه. وربما كان من الضروري على المنخرطين في الحوار مع الغرب أن يُحددوا بشكل دقيق المفاهيم التي توجد في أذهانهم للحوار، وإعادة صياغة هذه المفاهيم وفق الأهداف التي يسعون لتحقيقها من خلاله. فالحوار بين الثقافات هو في النهاية نشاط شبه نفعي؛ تتحدد طبيعته وفق الغايات المقصودة منه، ومن هنا فإن صياغة أهداف الحوار بوضوح أمر لا مفر منه في سبيل تحقيقها.

### 3-4. أهداف الحوار مع الغرب

الحوار بين العرب والغرب هو حوار بين حضارتين كلتاهما عميقة الجذور، موغلة في القدم، ولا ينقصها أسباب الفخر والاعتزاز؛ لكن الحوار الحضاري لا بد وأن يقوم على الشعور بنقص ما، فمن يظن أنه كامل في ذاته أبعد ما يكون عن الاتصال مع الآخرين. وقد أدرك روجيه جارودي ببصيرته النافذة أن حديث الغرب مع ذاته قد استمر زمناً كافياً<sup>1</sup>، وأنه ربما أن الأوان لأن يسمع الآخرين.

من دون أن يدرك الغرب أنه يحتاج إلى العرب من أجل مستقبله هو، سوف يُكتب على الحوار بينهما أن ينتهي إلى اللاشيء، أو على الأقل أن يستمر في شكل تمثيلية سياسية إعلامية، يتسلى بها مجموعة من البشر الذين يتظاهرون بسماع الآخر؛ بينما هم غارقون في أصداء ذواتهم. وإذا كان ثمة درس يمكن تعلمه من ذلك فهو أن العرب الذين يسعون للحوار مع الغرب لابد وأن يُظهروا حقيقة أنهم لا يسعون إليه من أجل مصلحة العرب فقط؛ بل من أجل مصلحة الغرب أيضاً.

1- انظر: روجيه جارودي. في سبيل حوار الحضارات. مرجع سابق، ص106.

يمكن التمييز بين نوعين من الأهداف التي قد يحققها الحوار بين الثقافات: الأول أهداف عامة؛ لا تخص حوارًا بعينه، ولا ترتبط بسياق زمني أو مكاني محدد. والثاني أهداف خاصة؛ يتم صياغتها بحسب ظروف كل حوار. وسوف أركز في هذا المقال على بعض الأهداف العامة التي يشترك فيها جميع أشكال الحوار وأنواعه.

### 3- 4. 1. الحوار بين الثقافات بديل للصراع بينها

يرتبط هذا الهدف بالحافز السياسي لمشروع الحوار بين الثقافات، فمشروع الحوار في العقدين الأخيرين يكاد يكون رد فعل مباشر على أطروحة صدام الحضارات، وعلى الرغم من أن واقع الصراع هو المهيمن على خريطة العالم فإن حُلْم إحلال الحوار محله لم يمت بعد؛ فلا زالت هناك أصوات عالية تحث على وضع الكلمة مكان البندقية.

### 3- 4. 2. الحوار بديل الهيمنة

من دون الحوار والتفاوض لا سبيل لحل مشكلات العالم إلا بواسطة القوى المادية. وفي حين يحفظ الحوار الديمقراطي للأطراف المشاركة فيه استقلالها، ويضمن تحقيق المساواة فيما بينها بغض النظر عن مدى قوتها المادية؛ فإن الاعتماد على القوى المادية - كأداة لتسوية المشكلات - يُقسّم العالم إلى فئتين؛ دول قوية مهيمنة، وأخرى ضعيفة مهيمنٌ عليها. والأمر ذاته ينطبق على ثقافات العالم وحضاراته، ومن هنا فإن خيار الحوار يبدو خيارًا استراتيجيًا للثقافات الثرية التي لا تؤازرها قوى مادية تماثل ثراءها الثقافي. وأظن أن الثقافة العربية في السياق التاريخي الراهن إحدى هذه الثقافات. إن الحوار بين الثقافات يُصبح من هذه الزاوية ضمانًا لأن تبقى ثقافات العالم حيّة، لا تتلاشى لصالح ثقافة واحدة مهيمنة، قد لا تكون بأية حال أتراها أو أرحبها.

### 3- 4. 3. الحوار مع الآخر (الغربي) واكتشاف الذات (العربية)

الآخر مرآة الذات، والحوار مع آخر مختلف بوابة سحرية لمعرفة ذات لا تتكشف بسهولة لنفسها، وقد حفظ لنا التاريخ نماذج من تأثير «الصدمة» الحضارية التي تؤدي إليها رؤية الذات في مرآة الآخر، وحفظت لنا سجلاته كيف كانت مثل هذه الرؤية بالغة الأثر في أصحابها؛ فالمصريون - الذين أذهلتهم صورتهم المنعكسة في مرآة الآخر الفرنسي إبان الحملة الفرنسية - أصابهم شعور بالهزيمة الحضارية والانكسار الثقافي، ربما لم يبرأوا منه بعد.

الحوار بين الثقافات لا يؤدي إلى تعريف الآخر بثقافة الذات فحسب؛ بل تعريف الذات بثقافتها قبل كل شيء؛ فمن الثابت أن بعض المعارف والخبرات الإنسانية لا تُدرك بشكل عميق إلا من خلال محاولة توصيلها للآخرين، ومن هنا شاعت فكرة أن إدراك المرء لشيء ما يتغير حين يكتب عنه؛ أي حين يحاول نقله للآخرين، وأن فعلي الكتابة والتكلم هما فعّالان معرفيان بقدر كونهما فعلين تواصلين<sup>1</sup>. من هذه الزاوية فإن الحوار بين الثقافات يتيح الفرصة أمام استبطان الثقافة العربية لذاتها، وبذلك يصبح الحوار مُثريًا لطرفيه كليهما اللذين يتأمل كل منهما ذاته في مرآة الآخر، فتتعمق معرفته بذاته بقدر ما تتعمق معرفته بالآخر.

### 3- 4. 4. تغيير الصورة الذهنية السلبية للعرب

على مدار قرون طويلة تشكلت صورة سلبية للعرب في المُخيلة الغربية؛ فمنذ انتشار الإسلام في بلاد الشام ومصر التي كانت خاضعة

1- انظر: أفايه، محمد. المتخيل والاتصال: مفارقات العرب والغرب. دار المنتخب العربي، بيروت، 1993. الفصل الخاص بالكتابة واللغة الوطنية، ص154-162.

للاحتلال الروماني نشأ خطاب عدائي غربي موجه نحو العرب على وجه خاص والمسلمين على نحو عام، وقد أزكت حوادث تاريخية مختلفة من شراسة هذا الخطاب وعدائيته؛ خاصة أحداث 11 سبتمبر.

هذه الصورة تُصاغ باستخدام وسائل جماهيرية متنوعة مثل الكاريكاتير، والأعمال الأدبية، والمقالات الأكاديمية، وبرامج الترفيه التلفزيوني، والأفلام السينمائية، والأمثال، والكليشيات، وتعريفات القواميس للمداخل اللغوية التي تخص العرب.. إلخ. وهي تستهدف المواطن الغربي العادي الذي لا يُتاح له غالبًا الوصول إلى مصادر صورة

بديلة أكثر إنصافًا وأقل تحيزًا ويضعنا ذلك أمام أمرين: الأول: أن أي تخطيط لحوار ناجح مع طرف ما، لا بد وأن يكون واعيًا بطبيعة الصورة التي لدى هذا الطرف، والعوامل التي شكَّلتها وكيفية تنفيذها دون اتهام هذا الطرف بالجهل أو سوء الطوية؛ بل من خلال الكشف عن مظاهر العوار التي تعترتها، وعن شبكة

**أن أي تخطيط لحوار  
ناجح مع طرف ما،  
لا بد وأن يكون واعيًا  
بطبيعة الصورة التي  
لدى هذا الطرف**

المصالح التي تستهدف في بعض الأحيان بناءها، ومظاهر التلفيق أو التناقض أو التضليل التي تنطوي عليها في بعض الحالات. ثانيًا: أن أحد أهداف الحوار - وربما الهدف الأساس - لا بد وأن يتجه إلى تصحيح هذه الصورة، واستبدالها بصور أخرى تبرز الجوانب الأكثر إيجابية من الثقافات والمجتمعات المختلفة.

#### 4- في رفض الحوار مع الغرب

منذ ظهور مشروع الحوار بين العرب والمسلمين من ناحية أخرى والغرب طُرحت بعض الآراء المعارضة لهذا الحوار والمشكِّكة في

جدواه، أو في النوايا الحقيقية للطرف الغربي. ويمكن الوقوف على توجهين أساسيين للرفض؛ الأول يستند إلى «إيديولوجية» دينية ترى في الغرب شرًا متجسدًا أصيلاً لا يُرتجى منه خير<sup>1</sup>، وترى أن العداوة بين العرب والغرب أبدية لا تنتهي إلا بالقضاء التام على أحد الطرفين، ويمكن أن نطلق على هذا التوجه «الرفض المطلق للحوار»؛ لأنه لا يربط قبول الحوار أو رفضه بمتغيرات خارجية.

الموقف الثاني يرفض الحوار بين العرب والغرب استنادًا إلى التشكك في غرض هذه الدعوى في السياق التاريخي الحالي، ويرى أن هدف الدعوة الغربية للحوار مع العرب هو خدمة المصالح الغربية التي هي محرك كل شيء؛ بل أصله كذلك. وهذا التوجه للرفض يمكن أن يُنعت بالرفض التاريخي.

كلا التوجهين يتصور الحوار على أنه عملية تسليم لا عملية تفاوض، وواقع الحال أن الأمر على خلاف ذلك؛ فالحوار لا ينطوي على تسليم طرف لآخر؛ بل هو عملية تفاوض حول الأفكار والاتجاهات ووجهات النظر؛ فالحوار الحضاري لا يعني أن تسلم الحضارة (أو الثقافة أو الأمة) الأضعف للأقوى؛ بل أن يتعلم كلاهما ما يمكن أن ينفعهما كليهما أيضًا.

يقوم الرأي القائل بأن الغرب هو الشر المتأصل الذي لا يفلح الحوار معه على إغفال الخبرة التاريخية في الوقت الذي يدّعي أنها تعضده؛ فالغرب ليس هو السياسة أو الاستعمار أو بعض الأفكار أو الآراء العنصرية فحسب؛ بل هو أيضًا ملايين البشر الذين يرغبون

1- انظر على سبيل المثال كتاب محمد مورو: الإسلام وأمريكا حوار أم مواجهة؟ نشر دار الدبس، مصر، من دون تاريخ، ص84.

في العيش في سلام وتفاهم مع جميع البشر، ويمثلون الطليعة المقاومة لنزعة الهيمنة الغربية ذاتها. الغرب ليس هو السياسة الغربية فحسب؛ يمثل ما أن العرب ليسوا هم الحكومات العربية فحسب. أما فكرة أن شعب من الشعوب هو شرير بطبعه أو أن الشر متأصل فيه فهي تقوم على تعميم مخلّ. وهذه الفكرة ذاتها هي التي يحاول فريق من المستقيدين من «اقتتال الحضارات» في الغرب أن يروج لها، مع الفارق أن الطرف الشرير يمثله في نصوصهم العربي أو المسلم.

أما حجة أصحاب الرفض التاريخي فإنها بالأحرى حجة على أهمية الحوار، وليست حجة على نبذه؛ فإذا كان هدف الغرب هو مصلحته الذاتية فإن الحوار هدفه في الأصل التقريب بين مصالح الطرفين وتحقيقها في إطار من التعايش والمصالحة. إن المصلحة الحقيقية لأية جماعة ترغب في توفير حياة أمنة لشعبها هو الاحتفاظ بعلاقات مسالمة وتعايش مع الجماعات المحيطة بها، وإلا فسوف تكون عرضة للقلق ونهباً لعدم الاستقرار. المصالح الحقيقية للشعوب تحتاج إلى إطار من العدالة والتسامح والحرية والمساواة يعمها جميعاً، والحوار فيما بينها أداة من أدوات الوصول إلى هذا الإطار؛ فالمصالح لا تلغي ضرورة الحوار؛ لأن للمصالح حوارها أيضاً. أما أن الحوار سوف يُستخدم كقناع للاستغلال والسيطرة، فإن كل طرف من أطراف الحوار عليه أن يُحدد أولوياته ومصالحه وأن يسعى من خلال الحوار لرعايتها، كما أن عليه تحديد الثوابت التي يرى أنها لا تخضع للتفاوض؛ بل يستطيع أيضاً أن يُحدد شروط ومنطلقات للحوار، ويتمسك بها، ومن ثم فإن الحوار ليس اختيار الضعفاء أو غير الواعين؛ بل اختيار الأقوياء المتبصرين.



إن دعاوى رفض حوار الحضارات، لا تخدم إلا حفنة من الغربيين من مروجي مقولة صراع الحضارات. ويجدر بنا - نحن العرب، الذين تضرروا كما لم تتضرر أمة أخرى بهذه المقولة - أن نكون حذرين وواعين بما يُحاك ضدنا، حتى لا نصبح خادمين لمصالح أعدائنا ونحن نتوهم مقاومتها؛ لكن هذا الوعي بضرورة الحوار لا يجب أن يُزيغ أفكارنا عن حقيقة أن بعض الحوارات لا تهدف إلى إجلاء سوء التفاهم وتعزيز المعرفة بالآخر؛ فبعض الحوارات - خاصة تلك التي ترعاها منظمات مشبوهة - تتخذ من الحوارات بين العرب والغربيين وسيلة لتحقيق أغراض لا تتوافق مع مصالح العرب.